تاريخ العقيدة الاسلامية قبل المعتزلة

بقلم الأستاذ على حسن عبد القادر
مدرس علم الأخلاق بكلية أصول الدين

قد بينا فى المقال السابق (المنشور فى « المعرفة » عدد يناير ١٩٣٣ ص ١٠٨٣) أهمية المعتزلة فى الاسلام ، وما لهم من تجديد فى علومه الدينية والفلسفية ، وكيف أنهم سلكوا بالثقافة الاسلامية طريق التفكير الصحيح حتى سموا « بالمفكرين الأحرار » (١) و« أهل العقل والنظر » (٢) .

ولما كانت عناية المعتزلة موجهة نحو مسائل الاعتقاد وأصول الدين ، ومدار أبحاثهم حول الكلام على العقيدة ، وما من شأنه أن يؤثر فى إيمان المرء أو عدم إيمانه ، فإننا نجد من الخير أن نلم أولا بالعقيدة الاسلامية فى بساطتها الأولى قبل أن تتعقد مسائلها وتتشعب طرقها ، بما أثارته الحوادث الداخلية من بحث وتفكير حول ذلك ، وبما كان للمعتزلة من أثر فى تحديد هذه المسائل وتنظيم هذه الطرق تنظيما أدى إلى ظهور علم الكلام . وقد يساعدنا هذا كله على تفهم العوامل التى ساعدت على نشأة هذه الطائفة وعملت على وجودها :

كانت أمور الدين ومسائل الإيمان واضحة عند المسلمين فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، لتبيينه لهم كل ما يحتاجون إليه ، وتقريره لهم مايصنعونه إذا اشتبه عليهم أمر من الأمور ، وإنذاره إياهم عاقبة الاختلاف إذا ظهر منهم ذلك . روى أنه عليه السلام خرج على قوم يتراجعون فى القرآن : فقال لهم مغضباً : « أى قوم ! بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، إن هذا القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكنه يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به » (٣) .

وقد جاء القرآن الكريم مقرراً لهذا . قال الله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات : فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به كل من عند ربنا » (٤) . وهكذا تحددت بكلام الله وهدى رسوله الكريم عقيدة الإيمان سهلة بسيطة « إيمان بكل ماجاء من عند الله تعالى ، والعمل بما

1) Die Frei denker'un JSlam (see Steiner, Mu'tazeliten)
2) Les Bitionälistes des L'J lam (see Galland, Essai sur les Motazelites
٣) ابن سعد ج ٤ قسم أول ص ١٤١
٤) آل عمران : ٧

استبان منه، وتفويض الأمر إلى الله فيما اشتبه»[1]، وفى هذا الطريق الواضح سار السلف الصالح رضوان الله عليهم فى حياة النبى وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

بيد أن هذه الحال لم تستمر زمناً طويلا، فقد بدأ يدب النزاع بين المسلمين فى شئونهم الداخلية، ثم كان الانقلاب الأموى الذى أوقع المسلمين فى اختلافات شتى، وأثار أسئلة دينية مختلفة عن شرعية النظام الجديد، وعن صاحب الحق الشرعى فى الخلافة؛ كما دعت حال الخلفاء الأمويين إلى ظهور آراء مختلفة فى أعمالهم وسلوكهم الدينى، فظهرت مسائل اعتقادية جديدة لم تكن معروفة قبل ذلك، وذهب الناس فيها مذاهب مختلفة؛ وهنا نقف قليلا عند نقد الخلقية الأموية لنرى كيف كان ذلك.

فمن المعروف أن الأمويين - منذ تبوءوا عرش الخلافة بعد هذه الفتن الطاحنة - بدت منهم روح أخرى مخالفة لتلك الروح التى كانت لسلفهم؛ فإن هذا السلف كان صالحاً تقياً متعبداً، يسير سيرة مطابقة لقانون الورع والزهد الذى حددته أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله؛ ولكن هؤلاء الخلفاء لم يبالوا ذلك كثيراً، ولم يستمرئوا عيشة البساطة والزهد، بل كانت حياتهم فى قصورهم حياة ترف وبذخ، وعيشتهم عيشة رقيقة لينة، وما ظهر من بعضهم من نسك، فإن ذلك لم يكن إلا فى فترات قصيرة، ولا يعد شيئاً بجانب حياة أبى بكر وعمر بالمدينة، والتى هى المثل الأعلى للحياة الاسلامية.

كما أنه كانت لهم بالنسبة للاسلام مقاصد أخرى غير مقاصد الخلفاء الذين كانوا قبلهم، وأرادوا أن يسيروا به فى طريق أخرى غير طريقهم؛ ويكاد يعبر لنا عن هذا أحد أنصارهم الحجاج بن يوسف الثقفى، لما زار ابن عمر فى مرضه الذى مات فيه، فلم يلتفت إليه ابن عمر فغضب وقال: «إن هذا يزعم أنه يريد أن نأخذ بالعهد الأول»، الأمر الذى يدل على أن خطة هذه الدولة كانت تخالف خطة العهد الذى قبلها؛ وعلى كل حال فإنهم كانوا يريدون أن يجعلوا من العرب المتحدة إمبراطورية عربية كبيرة شاسعة الأطراف، وأن ينشر لواء المملكة شرقا وغربا؛

ومما لاشك فيه أن توسيع دائرة الاسلام وامتداد نفوذه كان مقصداً شريفاً نبيلا؛ وقد مكنتهم هذه السياسة من البقاء فى الحكم مدة أطول مما كان يتنظر؛ واستعانوا فى تأييد ملكهم وسلطانهم بالدين، فإذا ثار عليهم ثائر، أو خرج خارج، قاوموه مقاومة دينية، وأقنعوا الناس بأنه خارج على الاسلام، وأنهم إنما يحاربونه لمصلحته وثباته، حتى لو ذهبوا لغزو المدينة أو راموا الكعبة، فإنهم يزعمون أن مصلحة الاسلام فى تأديب ذلك العدو! وقد حاربوا العلويين بالرغم من انتسابهم للبيت النبوى.

---

١) قال ابن خلدون: «وهذا معنى قول الكثير منهم: اتركوها كما جاءت، أى آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها وتفسيرها، لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له» مقدمة ص ٢٨٧

على أنه مع كل مامدحهم به الشعراء من أنهم حماة الاسلام ، وما عملوه من توسيع دائرة الدولة الاسلامية،فقد بقيت حكومتهم مكروهة عند الناس مذمومة ثقيلة الوطأة [١] يتمنون زوالها ، ويرجون أن يبدل الله هذه الحال ؛ وقد بقي هذا الرجاء ساكناً هادئاً ،فلم يقوموا إزاءهم بعمل من أعمال الثورة ، بل قابلوهم بالسكون والصبر والاستسلام ، جرياً وراء مبدئهم من أن مصلحة الاسلام في طرح الفتن واجتناب القلاقل ،واكتفوا بهذا البغض الخفي الكامن، الذي كثيراً ما كان يظهر في تلك الكلمات والدعوات التي صبت على هؤلاء الخلفاء .قال ابن عمر: « ما أجدني آسى على شيء من أمر الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية » [٢]،وكان ابن المسيب يقول:« ما أصلي صلاة إلا دعوت الله عليهم » .[٣]

وكان من الواجبات الدينية الظاهرة للخليفة أو الأمير،أن يؤم الناس في صلاتهم ويخطبهم، وكانت أعمال الأمويين غير مستقيمة مع الاسلام في كثير من الأحيان ، فانظر مدى تبرم الناس من أن يقتدوا بإمام يعلمون مخالفته وعدم استقامته . لاريب أنها كانت حال مؤلمة شديدة ، ولكن خشية الفتنة كان مبدؤهم الصبر ، وأنه من مصلحة الجماعة أن يصلي الناس وراء الصالح والفاسق . هذا في الواقع تصوير شعور الناس في ذلك الوقت ، وليس من شك في أنه كان من غير الممكن أن تبقى هذه الحال،وأن يمكث الناس ساكنين كل هذا السكون إزاء هذا السلوك المعقد وتلك الحال الملتوية ، فبدأ الناس يتساءلون عن « الإيمان والعمل»:وهل يكون إيمان بغير عمل ؟ وما مكان العمل من الإيمان ؟ ثم ماذا عسى أن نسمي هذا المسلم الذي لا يعمل أعمال الاسلام ؟

ويظهر أن هذا السؤال البعيد المدى عن الإيمان والعمل ، كان أول سؤال اعتقادي نشأ في الاسلام دعت إليه حال هؤلاء الخلفاء ، ثم مالبث أن أصبح مجالا لاختلاف المسلمين وافتراقهم .

فأما السلف فكان جوابهم عنه مطابقاً لمبدئهم من الصبر والمسالمة لهؤلاء الخلفاء : وأن هؤلاء الذين لا يعملون أعمال الإسلام ،أو بعبارة أخرى: هؤلاء العاصين مؤمنون ولكنهم فاسقون ، فلم ينزعوا عنهم لقب الإيمان وإن كان إيماناً غير كامل، على حين كان الخوارج خصوم الدولة يكفرونهم،ويقولون إن اقتراف الآثام والمعاصي تخرج المرء من حظيرة الاسلام .

---

١) الفخري ص ١٢٨

٢) ابن سعد ج٤ ص ١٣٧

٣) ابن سعد ، ج ٥ ص ٩٥

وهناك حزب أجاب عن هذا السؤال بما هو أقرب تسامحاً مع هؤلاء الخلفاء، فقال إن الإيمان هو معرفة الله فحسب ، وليست الأعمال داخلة فيه ، وإن أهل المعاصي مؤمنون كاملون ، وكما أنه لاتنفع مع الكفر طاعة، لاتضر مع الإيمان معصية [1]. وهذا الحزب المتسامح هو حزب المرجئة ، من الرجاء لأنهم يرجون لأهل المعاصي الثواب وعدم العقاب، أو من الإرجاء وهو التأخير، لأنهم يؤخرون الحكم عليهم إلى الآخرة .

على أنه مما يؤسف له أن ليس لدينا عن هذه الطائفة إلا أخبار ضئيلة ؛ فقد اختفت جميع الأصول العربية عن عهد الأمويين ، وهو العهد الذي سيطرت فيه آراء هذه الفرقة وقويت شوكتهم بما لاقوه من تعضيد الخلفاء الأمويين لهم، لنصرتهم ودفاعهم عنهم؛ والكتب القديمة التي كتبت عن هذا العهد إنما كتبت أيام العباسيين ، ولذا فإن الأخبار التي وصلتنا عن المرجئة الذين سقطوا بسقوط الدولة الأموية ، إنما هي شذرات وجدت عند الكتاب في العهد الأخير، وهناك قصيدة لأحد شعراء المرجئة وولاة بني أمية في عهد عبد الملك بن مروان ، هو « ثابت قطنه » وضحت بعض تعاليمهم، قال :

ياهند فاستمعي لي: إن سيرتنا	أن نعبد الله لا نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة	ونصدق القول فيمن جار أو عدلا
المسلمون على الإيمان كلهم	والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً	من الناس شركاً إذا ما وحد الصمدا
لانسفك الدم إلا أن يراد بنا	سفك الدماء طريقاً واحداً جددا
من يتق الله في الدنيا فإن له	أجر التقي إذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له	رد وما يقض من شيء يكن رشدا
كل الخوارج مخطئ في مقالته	ولو تعبد فيها قال واجتهدا
أما علي وعثمان فإنهما	عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا	شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزي علياً وعثماناً بسعيهما	ولست أدري بحق أية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به	وكل عبد سيلقى الله منفردا [2]

---

١) تعطي المرجئة للعصاة اسم الايمان على الكمال بخلاف السلف الذين يقولون انه مؤمن غير كامل الايمان ـ ابن حجر ـ ج ١ ص ٩٠ ـ ٩٣

٢) الاغاني ج ٨ ص ٩٢ راجع عن ثابت قطنة : ابن خلدون ج ٣ ص ٥٢ ـ ٥٦ ، والبلاذري ص ٤٢٩ ؛

وتكاد تصور لنا هذه القصيدة، مع ما كتبه المؤرخون كالشهرستانى، جملة أفكار هذه الفرقة التى تتلخص فى هذا التسامح المطلق، وصدق القول فى كل الناس، وهذه الروح المطمئنة البعيدة عن الخوف والفزع، ثم هذه الميزة التى امتازت بها هذه الفرق، وهى إهمال العمل وعدم النظر إليه نظرة إلى أمر محتم. ذكر المقدسى قوماً من الرى فقال: «وهم قوم مرجئة لا يغتسلون من جنابة، ولا رأيت فى قراهم مساجد، وناظرتهم فقلت: ألا يغزوكم المسلمون وأنتم تعتقدون هذا المذهب؟ قالوا: ألسنا موحدين؟ قلت: كيف وقد أنكرتم فرائض ربكم وعطلتم الشريعة؟ قالوا: إنا ندفع إلى السلطان فى كل سنة أموالا جمة».(١) وهكذا قد اكتفوا من الإسلام بالتوحيد وطاعة أولى الأمر، وأهملوا الأعمال الإسلامية، بل قد تطرف بعضهم فلم يقنع بإهمال العمل فزعم أنه ليس من الكفر السجود للشمس، لأنه علامة كفر وليس بكفر (٢).

وقد كانت نواة الإرجاء موجودة فى الصدر الأول من الإسلام، وكانت تمثل فكرة الحياد إزاء الأحزاب كالشيعة والخوارج. جاء فى الطبقات الكبرى أن بريدة الأسلمى الصحابى حينما عرض عليه رجل أمر على وعثمان وطلحة والزبير، قال: «اللهم اغفر لهم، قوم سبقت لهم مع الله سوابق، فإن يشأ يغفر لهم بما سبق فعل، وإن يشأ يعذبهم فعل، حسابهم على الله»(٣)، وجاء فيه أن محارب بن دثار كان من المرجئة الأولى الذين يرجون علياً وعثمان ولا يشهدون بإيمان ولا بكفر (٤).

وذكر المؤرخون(٥) عدداً من أجلاء السلف الذين عرفوا بالإرجاء، منهم: سعيد بن جبير، وطلق ابن حبيب، ومقاتل بن سليمان، وغيرهم من الأئمة مثل أبى حنيفة، وأبى يوسف: فقد كان يقال عن أبى حنيفة وأصحابه إنه كان مرجئاً وأكثر أصحابه معتزلة، وإن كان المشهور عن أبى حنيفة ترك الخوض فى الكلام، وكل ما فى الأمر على ما رجحه ذلك بعضهم أن أصحابه تعاطوا الكلام، وأن المتكلمين تفقهوا بمذهبه (٦). ولعل الذى يلاحظ أن مذهب أبى حنيفة يستند فى روحه إلى أساس من التسامح الهادىء الذى هو ميزة المرجئة، فالحنيفية من بين المذاهب الأخرى متسامحون، وهذا اليسر والتسامح هو سبب انتشار هذا المذهب وذيوع آراء هذه المدرسة من بين المذاهب الأخرى.

وهذا الذى ذكرناه من رجوع فكرة الإرجاء - أو بعبارة أصح الاعتدال - إلى أصل إسلامى

---

١) أحسن التقاسيم: ص ٣٩٨

٢) مقالات الاسلاميين - ج ١ ص ١٤١ - ١٤٢.

٣) ابن سعد: ج ٤ قسم ١ ص ١٧٩

٤) ابن سعد ج ٦ ص ٢١٤

٥) الملل للشهرستانى ج ١ ص ١٩٤.

٦) أحسن التقاسيم: ص ٤٢

بحث ،هو ماهدانا إليه بحث المصادر العربية،ويعزو(فون كريمر) فى كلامه عن الفرق الإسلامية أفكار المرجئة إلى تأثير الفلسفة اليونانية التى أثرت فى الإسلام فى وقت مبكر ،بواسطة المسيحية فى دمشق ؛ فمن المعروف أن الكنيسة الشرقية قد تنازعت مع الكنيسة الغربية فى مسألة المعاصى والخلود فى النار،وتمسكت الكنيسة الشرقية أخيراً بنهاية العذاب وعدم الخلود، ومن هنا نشأت اقتناعات المرجئة اللطيفة السهلة ؛ من أمثال يحيى الدمشقى الذى كان يشغل فى دمشق هذه الأثناء مركزاً سامياً، فقد كان مستشاراً فى البلاط الأموى (١) .

وعلى كل حال فقد أصبحت مسألة الإيمان والعمل موضوعاً للمحاورة فى المجتمعات العلمية والمجالس الدينية ، وعقدت به براهين اعتقادية ؛ وسيأتى لنا : كيف أنه كان النقطة المبدئة للاعتزال ، وكيف أظهر « واصل بن عطاء » قوله بالمنزلة بين الإيمان والكفر .

وقد جالت فى الأبحاث الدينية مسألة أخرى تتعلق بهذه المسألة شرحتها كذلك أفكار المرجئة،وهى « زيادة الإيمان ونقصانه » ، وبالطبع كانت الزيادة والنقصان غير ممكنة عند المرجئة الذين يلاحظون أن العمل الذى يزيد وينقص،غير داخل فى الإيمان ، وحينئذ لايتبعض الإيمان ولا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل فيه ، وقد جاء القرآن الكريم مصرحاً بزيادة الإيمان والهداية،وأن كثير العمل وقليله يتبعه زيادة الإيمان ونقصانه ، ولذا فقد تمسك السلف على طريقتهم فى عدم التأويل،وقالوا :«إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص » (٢) .

هذا بيان قصير عن العقيدة الإسلامية والأبحاث التى أثيرت حولها،ومن ذلك كله نستطيع أن ندرك مقدار الحذق والمهارة التى كانت تدور عليها رحى المحاورات فى هذا العصر الذى نشأت فيه المعتزلة ،وقد آن لنا أن نتكلم على ذلك ، وهو ماسنعالجه فى المقال المقبل إن شاء الله تعالى . ؟

على حسن عبد القادر

---

١) von Kremer ,ztsreif züge S.

٢) مقدمة ابن خلدون ص٣٨٦ البدء والتاريخ ٥ ص ١٤٨ :

المعرفة فى الحجاز

تطلب « المعرفة » فى الحجاز من مكتبة حضرة الشيخ مصطفى محمد يغمور بمكة المكرمة

المعرفة فى عدن

تطلب « المعرفة » فى عدن من مكتبة حضرة السيد معروف عمر عقبه .

المعرفة فى مراكش

تطلب « المعرفة » فى مراكش من حضرة السيد أحمد داود صاحب المكتبة الأدبية بتطوان